الدروس التربوية

من الأمثال القرآنية

أ. أناهيد بنت عيد السميري

رمضان ١٤٤٥ من الهجرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

"إكمال المثل الأول في سورة النور (٣٥) "

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا، ونورًا لصدورنا، وجلاءً لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

نور أنزله رب العالمين ليمشي الناس فيه وليستضيئوا به، يملأ أفئدتهم فيحملونه، ويشع حولهم فيحافظون عليه، مجتمع النور كالمشكاة التي فيها مصباح، والمصباح في زجاجة. نسمع هذه الآيات المباركات من سورة النور التي فيها أحكام تجعل هذا المجتمع مليء بالنور خاصة في هذا الموضوع الدقيق الخطير؛ موضوع العفة.

نعود إلى الآيات التي ابتدأنا ببيانها أمس، ونبتدئ بقراءة السياق كاملًا من الآية (34) إلى الآية (46)، ونركز لنرى كيف يأخذنا السياق إلى النور، ويبين لنا -عزَّ وجلَّ- مصدر النور والظلمة، والأخطار التي تحيط بنا. نسأل الله أن ينجينا من كل خطر، نسأل الله أن

ينجينا من كل سوء، نسأل الله أن يحفظ علينا النور، وأن يجعلنا من الخلق الذين امتلأت قلوبهم نورًا، اللهم آمين.
نسمع الآيات ثم بعد ذلك ننظر إليها نظرة إجمالية وتفصيلية والله الموفق:

(وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (34) ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن

فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (40) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

كما هو واضح لنا في هذه الآيات المباركات التي سمعناها، قد ابتدأت بالخبر بأن الله أنزل، ونلاحظ التأكيد (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ)، وختم هذا السياق بنفس هذه الجملة (لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ). فهذا السياق فيه ثلاثة أمثال، وما يتبع هذه الأمثال من البيان. وحين

نقف أمام هذا السياق الذي ابتدأ، كما تبين، من عند قوله -تعالى-: (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ) إلى نهاية السياق الذي تكررت فيه نفس الجملة، هذا المثل العظيم أتى في هذا السياق الذي بدأ بذكر العلم الذي أنزله الله إلى عباده، وهذا العلم يتضمن الآيات البينات والأمثال المضروبة من أحوال الأمم السابقة، (وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ) والمواعظ (وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ).

وهذا العلم، الذي نزل من السماء، هو الطريق الوحيد لهداية الناس، وهذه الجملة يجب أن نهتم بها غاية الاهتمام، أنه هو الطريق الوحيد للخلق من أجل أن يهتدوا؛ ولذلك بيّن -عزَّ وجلَّ- في هذا المثل أنه -سبحانه وتعالى- نور وأنه هو الذي يخلق النور، ثم ضرب المثل، سبحانه وتعالى. فهو الهادي لأهل السماوات والأرض، فكل خير ونور وبصيرة وهدى، فهو منه وحده -سبحانه وتعالى- (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

وهنا كنا أكدنا على أن هناك النور الذي هو صفة لله -سبحانه وتعالى- فهو نور، وقد سُئل النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- في حادثة المعراج عن رؤيته لربه فقال:

«نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»[1] فـ(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، هذه صفته سبحانه وتعالى.

وهناك النور المخلوق، فكل نور نراه في العالم هذا من نور الله، كما مر معنا، ونؤكد على هذا من أجل ألا يحصل خلط بين نور الله الذي هو صفة له وبين النور المخلوق.

النور المخلوق نفكر فيه، فهو نوعان؛ حسي ومعنوي، الحسي هو كل ما نراه أمامنا من نور الشمس والقمر والمصابيح التي يستعملها الخلق، وكل أنواع الإضاءات، كل هذه تعتبر من النور الحسي. وهناك النور المعنوي وهو نور الإيمان، مثلما مر معنا (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) هناك أناس يمشي معهم نور ويمشون بين الناس بالنور، فيعرف كيف يخاطب هذا، ويكلم هذا، ويأمر هذا بالمعروف، وينهى هذا عن المنكر، ويعرف كيف يتعامل مع الخلق بنور الله الذي وهبه في قلبه. هذا نور الله الذي سمعناه في ذاك المثل (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)، هنا نفهم هذا

---

[1]() أخرجه مسلم (178).

النور. هذا النور، ضرب الله -عزَّ وجلَّ- المثل به، ضرب المثل لنوره الذي يضربه في قلوب عباده المؤمنين، من أين يأتي هذا النور؟ جزاء تصديقهم وقبولهم لما نزل من البينات، تعلمهم لها وعملهم بها وخاصة ما يكون من تطهير قلوبهم؛ لأن هذا أثر العلم وهذا أول العمل، أثر العلم طهارة القلب وأول العمل أن تبذل جهدك أن تطهر قلبك وخيالاتك وتطهر خواطرك، وتدفع الشر منها. وأهم موضوع نهتم أن يكون قلبنا طاهرًا منه وأن يكون قلبنا سائرًا فيه في الطريق المستقيم مسألة العفة، هذه من أخطر المسائل، لو علم الخلق كم في مسألة العفة من خطر، وكم يأتي الشيطان إليها، لأخذوا احتياطهم وبذلوا جهودهم ألا يفسدوا حياتهم ولا يفسدوا حياة أبنائهم ولا يفسدوا حياة مجتمعهم، لوضعوا أسوارًا بعد أسوار لأجل المحافظة على أنفسهم وأبنائهم وذرياتهم ومجتمعهم، لكن هكذا الشيطان يفعل بالخلق. مر معنا هذا النقاش، وارجع إلى آيات قصة آدم -عليه السلام- خاصة في سورة الأعراف التي بينت بوضوح مقصد الشيطان من فضح الإنسان، وأن يريه سوأته تحقيرا له.

الله يجعل في قلوب عباده المؤمنين نورًا جزاء تصديقهم وقبولهم لما نزل من البينات، وتعلمهم لها، وعملهم بها. فبين -عزَّ وجلَّ- حقيقة ذلك النور ومادته التي تغذيه وأثره في استنارة القلب وبصيرته، فضرب المثل (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ). ثم ذكر -سبحانه- شاهدًا على أثر ذلك النور. هذا الشاهد ذكره -سبحانه وتعالى- بصفات عباده المؤمنين الذين استنارت قلوبهم بذلك النور، فأكسبها البصيرة، وجعلهم في أحسن الأعمال، العلم كشف لهم أحسن الأعمال وهم أصبحوا فيها؛ لزموها، وحافظوا على نفسهم فيها؛ لذلك قال: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) والعلم كشف لهم أراذلها فابتعدوا عنها، وبيّن -عزَّ وجلَّ- هؤلاء وحالهم، كما سيأتينا، إن شاء الله، شيء بسيط من البيان عنهم.

ثم أتبع ذلك بذكر مثلين يصور فيهم سبب ضلال الكفار والمنافقين؛ لأن الكفار والمنافقون في هذه السورة واضحين غاية الوضوح. المنافق نفاقًا أكبرًا -نفاقًا اعتقاديًا- الذين منهم هؤلاء الذين تعرضوا لعرض النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، واتهموا عائشة -رضي الله عنها- البريئة المبرأة. هؤلاء منافقون نفاقًا أكبر، الذين

تولوا كِبر هذا الأمر ورأسه، أما من سمع وتكلم فهنا كان الواجب أن يظن المؤمنون في أنفسهم خيرًا.

نسمع هذا الكلام في المثل من أجل أن نعرف حين نسمع: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) أن تحت كلمة (كَفَرُوا) يدخل النفاق الأكبر، فالمنافقون نفاقًا أكبر كفار، بل أسوأ من الكافر الظاهر الكفر! لذلك جزاؤهم أن يكونوا في الدرك الأسفل من النار.

ذكر -عزَّ وجلَّ- مثلين يصور فيهما سبب ضلال فريقين من هؤلاء، ما السبب؟ السبب إعراضهم عن نور العلم الذي أنزله الله لهداية الناس، وما نتج عن ذلك من حجب الله لنوره عنهم، فبقوا إما في حيرة فرأوا السراب، وإما في ظلمات، يعني بقوا في الضلال والظلمات يعمهون؛ لذلك الله -عزَّ وجلَّ- قال: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) كما سمعنا الآيات.

سنلاحظ أن المثل الأول ختمه الله بقوله: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ) والمثل الثاني والثالث مشتركان في المقصودين. في المثل الثالث قال -سبحانه وتعالى- : (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ).

هذه الأمثال المصورة ربطت الأشخاص، كأنك تنظر إلى حال من أعطاه الله النور ومن لم يحصل له ذلك النور، وبيان لحقيقة مهمة جدًا وهي: أن الهداية لا تكون إلا بنور الله -عزَّ وجلَّ-. من أين يحصل نور الله؟ من تعلم العلم، من الوحي النازل من الله، والإيمان به والتصديق؛ لأن الإنسان يمكن أن يتعلم لكن ما يورثه هذا العلم إيمانًا، فيتعلم العلم ويؤمن به ويعمل به، ويبتعد كل البعد عما يطفئ نوره، ولا يوجد أخطر من موضوع العفة يطفئ نور العلم، ومن لم يعطه الله نورًا فلن يستنير قلبه أبدًا. علينا أن نعرف أن من لم يسلك سبيل العلم فلن يعطيه الله نورًا، ومن لم يطلب النور من الله، لن يعطيه الله نورًا، ولن يستنير قلبه أبدًا ولو سلك ما سلك.

من سياق الأمثال الثلاثة عرفنا أن هناك نور يهدي إلى الإيمان. لا ننسى أنه ميت وأحياه الله وأعطاه الله نورًا يمشي به في الناس. هنا وجدنا نور يهدي إلى الإيمان وهو نور العلم، نور يجعله الله في قلوب عباده المؤمنين.

مرة أخرى، رب العالمين قال: (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ) ما هو هذا النور على نور؟ نور العلم الذي يهدي إلى الإيمان،

إذا اهتم الإنسان بالعلم وكان صادقًا في طلبه؛ يريد أن تصل معانيه إلى فؤاده، ما أثر العلم؟ أن الله يقذف في قلبه نور الإيمان، فتعلم العلم هو فعل العبد وقذف النور في القلب هو فعل الله تعالى، فإذا جاء العبد بما عليه من الاستجابة للعلم وانفعل مع هذا العلم، وكانت فطرته السوية تؤيد هذا العلم، أعطاه الله من فضله وهداه، هذه هي الصورة الكاملة، وبعدما أخبر -سبحانه وتعالى- عن هذا، أشار إلى أفعاله في الكون، سبحان الله، أفعال عظيمة، وبدأ بقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) إلى أن وصلنا إلى قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ) ومررنا أثناء هذا بأنه يؤلف السحاب ويخرج الودق من خلاله، ومررنا على أنه (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ)، نلاحظ (الْأَبْصَارِ)، والـ(نُّورٌ)، كلها توصلنا إلى هذه النتيجة (لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) الله أنزل آيات بينات وحولك هذه الآيات تفكر فيها، انظر لها، منها تعرف رب العالمين، تعرف عظمته، منها تستسلم له -سبحانه وتعالى- ولأوامره، ولنواهيه، من هذا التفكر،

من هذا النظر، من عدم إهمال دلالة هذه الأشياء التي حولك على كمال الله.

أنت تفكرت وفعلت وأدخلت النور إلى قلبك فأبشر بكل خير، أبشر بالهداية، (وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) الآيات بينات، تُقبل عليها، تتعلمها، تتفهمها، تشتغل بها، تطهر قلبك من هواجس هذه الأمور القذرة التي يمكن أن تأخذك وتبعدك، فعلت هذا؛ الله يهديك إلى كمال الإيمان.

انظر إلى هذا وانظر لما يقابله وهو ضلال الكفار الذي سببه إعراضهم عما أنزل الله من العلم، وعما جعله الله من آيات حولهم؛ لذلك ضرب الله لذلك مثلين يبينان حال هؤلاء الذين حُرموا من النور الإلهي؛ مَثل السراب ومَثل الظلمات. أمس مررنا على المثل المضروب للنور؛ (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ) ونجيب على بعض الأسئلة التي يمكن أن تمر على الخاطر، يمكن أن يقال: "لماذا ضُرب نور الله في قلب المؤمن بالمشكاة، وليس بالشمس، وليس بالقمر -مثلًا- لماذا المشكاة؟" الجواب بإذن الله، يكون واضحًا من خلال تصور أن مصادر النور مثل هذه المصادر تذهب وتعود، هذا شأن. وشأن آخر مهم أن هذه الشمس والقمر ليست

مركّبة تركيبًا ظاهرًا للناس بحيث أنهم يعرفون مكونات هذا النور في قلب الإنسان. الشمس تشرق وتغرب، القمر يطلع، هنا يمكن أن تكون إشكالات:

أولًا: أن هناك وقت يكون فيه النور ووقت لا يكون فيه النور.

ثانيًا: أن الحالة التي يراد بيانها مركبة من أشياء لن تكون الشمس والقمر مناسبة لضربها. المصباح حفت به أدوات وأمور حين تفهمها في المثل، تفهمها في حقيقة الإنسان وحاله.

فحال نور الله في قلب المؤمن كحال السراج، فيه زيت وفيه زجاجة وموضوع في كوة وليس مثل الشمس والقمر.

يمكن أن يأتي سؤال آخر، ضرب الله -عزَّ وجلَّ- هذا المثل بالمشكاة والمصباح، لكن ابتدأ بقوله عزَّ وجلَّ (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)، المشكاة هي المكان الذي فيه السراج، لماذا ابتُدِئ بالمكان؟ هو لا يراد أن يقال انظر للمكان، لا يراد لفت النظر للمكان لأنه المكان، كأن هذه المشكاة، التي هي الفتحة غير النافذة، الرف الذي يضعون فيه السراج، حين يضعون السراج فيه

ويضيء، وتأتي الفتحة غير النافذة تجمع النور، ويكون فيه شدة إضاءة، فهذا المكان كله يلفت نظرك، ترى أنه مصدر للنور. فهذا -والله أعلم- سبب أن المثل ابتدأ بقوله تعالى: (كَمِشْكَاةٍ)، المشكاة هي الكوة غير النافذة التي تكون في الجدار، يوضع فيها المصباح. تجويف صغير في الجدار كالرف، لماذا ابتُدِئ المثل به؟ لأجل أن يُلفت النظر إلى أن هنا مصدر الضوء، ثم تفكر في مصدر الضوء، تقول: هذه الإضاءة العظيمة ما سببها؟ أن هذه المشكاة حفظت النور، من أين أتى النور أصلًا؟ تقول إن هذا النور أتى من الأجزاء التي مر الكلام عنها، وهي الفتيلة والزجاجة والزيت. وعرفنا أن كل جزء من هذه الأجزاء له ميزته؛ زيت صافٍ، وهو الفطرة السوية، فكلما ازداد صفاؤه كلما ازدادت إنارة هذا السراج، والزجاجة مع صفائها كان صفاء انعكاس النور. تصور هذا السراج المنير كيف هو في قلب المؤمن؟ نور إذا تمكن من القلب وأشرق فيه فاض على الجوارح. تصور بهذه الصورة، أن النور يكون موجودًا في قلب المؤمن فيفيض على الجوارح فترى أثره في الوجه والعين، ويظهر في القول والعمل، ومن قوته يصبح الإنسان يرى الحقائق الإيمانية، سبحان الله!

فهذا النور هو الذي أودعه الله في قلب المؤمن؛ نور من معرفته ومحبته والإيمان به، وهو نور ألقاه الله -عزَّ وجلَّ- في قلب هذا الإنسان على قدر تطهيره لهذا القلب، وعلى قدر تعلمه وانفعاله مع هذا العلم، وهذا هو النور الذي أنزله الله إلى الخلق فأحياهم وجعلهم يمشون به في الناس، فأصله موجود في الفطرة لكن يقوى مع العلم والعمل، (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ). هو موجود في الفطرة الإنسانية (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ)، يزيد مع العلم، يضيء، ويضيء، حتى يقذف الله -عزَّ وجلَّ- نور الإيمان فيزداد ويظهر أثره على وجوه هؤلاء المؤمنين وعلى جوارحهم وعلى أبدانهم، بل والله حتى على دورهم؛ لذلك قال: (فِي بُيُوتٍ).

إذا كان يوم القيامة تحول هذا النور المعنوي إلى نور حسي وصار هذا النور بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم يوم القيامة فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا. كم لك من هذا النور؟ سيتحول هذا النور إلى حسي وهو في الدنيا معنوي، والشمس والقمر حسية، ويوم القيامة هذه الشمس والقمر ينتهي دورها وتطفأ وتلف وتلقى في النار وقودًا لمن عبدها. أين يمشي الناس؟ الكل يمشي

في ظلمة ما عدا أهل الإيمان، نورهم المعنوي الذي كان في قلوبهم في الدنيا يتحول إلى نور حسي، لكن كلّ على حسب قوة نوره وضعفه، فلا أحد يستفيد من نور أحد، إنما كل إنسان يستفيد من نوره هو وحده. فمنهم من نوره كالشمس ومنهم من نوره كالقمر، ومنهم من نوره كالنجوم، إلى أن ذكر في الأثر عن الصحابة أن بعض الناس يكون نوره على قدر إبهام قدمه! يطفأ مرة ويضاء مرة، هذا حال نور الناس في الدنيا، يعطوا هذا النور على الجسر بمقدار ما حصلوا في الدنيا. نحن متأكدون أن هذا النور معنوي في النفس، يكشف لنا الحقائق، الإنسان حين يتعلم العلم ويؤمن، وينظر لموقف كان هو جاهلًا فيه ثم ينكشف له العلم يشعر بهذه الكلمة -كلمة النور- هذا النور المعنوي الآن غدًا نفسه سيظهر لنا عيانًا.

هذا الذي سيحصل لأهل الكفر الذين هم المنافقون، سينطفئ نورهم، سيقولون لأهل الإيمان: (انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ)، وكما في سورة الحديد، الرد عليهم معروف. لما لم يكن لهذا المنافق نورًا سابقًا في الدنيا، نوره كان ظاهرًا لا باطنًا، أعطي نور ظاهر ثم وصل إلى نقطة معينة وانطفأ هذا النور. هم كانوا يخادعون

الله بإظهار النور فخادعهم الله بأن أعطاهم، حتى وصلوا إلى سور له باب، إلى آخر ما في سورة الحديد.

فهنا ضرب الله -عزَّ وجلَّ- مثلًا لهذا النور ومحله وحامله ومادته، بما مر معنا؛ مشكاة في الحائط مثل المجتمع، والمشكاة فيها زجاجة من أصفى الزجاج حتى أنها شبهت بالكوكب الدري، في بياضه وصفائه، وهي مثل للقلب. وهنا كلام جميل لابن القيم في تشبيه قلب المؤمن بالزجاجة، قال:

"وشُبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافًا هي في قلب المؤمن، وهي الصفاء والرقة والصلابة فيرى الحق والهدى بصفائه وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته، ويجاهد أعداء الله تعالى ويغلظ عليهم ويشتد في الحق، ويصلب فيه بصلابتها، بصلابة الزجاجة، ولا تُبطل صفة منه صفة أخرى ولا تعارضها، بل تساعدها وتعاضدها. لماذا الزجاجة بالذات؟ هذا كلام ابن القيم الذي سمعناه. وفي أثر: يقصد أنه نقلًا عن الآثار من كلام السلف الصالح «القلوب آنية الله تعالى في أرضه، القلوب الآنية التي يضع الله -عزَّ وجلَّ- فيها الحق والعلم والنور، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها»."
انتهى النقل من كلام ابن القيم.

المقصد أن هذا المثل المضروب لأهل الإيمان بيّن حال المؤمن وعلاقته بالعلم، وعلاقته بتطهير قلبه لأجل أن يكون محلًا للعلم، وجاء في سورة تناقش العفة، وهنا التأكيد؛ لأن هذا الموضوع من أكثر المواضيع التي تفسد القلب فتجعله محجوبًا ممنوعًا عن نور الإيمان، في مقابل أن الإنسان إذا بذل جهده في دفع هذه الخواطر وفي دفع هذه الأمور التي لا يستطيع الإنسان حتى يكاشف غيره بها، لا يستطيع الإنسان أن يصف لإنسان ما هي الخواطر التي تمر عليه حول هذا الموضوع، أو فيما يتصل بكشف العورات أو في أمور تتصل بأنواع من العلاقات، أو بأنواع من الميول القلبي، حتى ربما كذب الإنسان على نفسه، وهذا من أكثر ما يثيره الشيطان ويحركه في قلب الإنسان. إذا اكتشف الإنسان أن هذا الموضوع خطير وأنه يجب أن يجاهد، وبدأ في التطهير، فالحمد لله، فطرته السوية تأتي عليها مادة الوحي، تباشر قلبه، وتخالط بشاشته، فيزداد نورًا لأنه حافظ على نور الفطرة، فيزداد نورًا بالوحي، نور الوحي على النور الذي فطره الله عليه، فيجتمع نور الوحي على نور الفطرة (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ) فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرًا، ثم يسمع الأثر أو يفهم

الآية أو يسمع الحديث فيجده مطابقًا لما شهدت به فطرت، فيكون (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ)، هذا هو شأن المؤمن؛ يدرك الحق بفطرته مجملًا، ثم يسمع العلم فيجيء به مفصَّلا، فينشأ إيمان المؤمن من شهادة الوحي والفطرة. هذا إذا بقي قلبه صافيًا، طاهرًا، بعيدًا عما يشوشه، أو إذا هو بذل جهده، حتى لو تشوش في زمن من الأزمنة، يعيد فيطهره، ينظفه، يحافظ عليه، يشعر أن قلبه أمانة عنده، فيجب عليه ألا ينظر النظرة المحرمة، ألا يلتفت قلبه إلى المحرم، ألا يتكلم بالكلمة القبيحة، ألا يظن في الناس، ألا يفكر في عوراتهم، ألا يتكشف عليهم، ألا يجري وراء فضائحهم...إلى آخره. يشعر أنه يجب عليه أن يكون عفيفًا، فالعفة لها أثرها الكبير في هذا الأمر.

نلاحظ أن الله -عزَّ وجلَّ- ذكر في الآية أن (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وذكر نوره في قلوب عباده المؤمنين. معنى ذلك أن هذا من أعظم عطايا رب العالمين، لا ننسى: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) هذه الآيات التي في سورة النور بيان لهذه الآية العظيمة التي مر معنا فهمها في المثل. ونفكر كيف أن الله -عزَّ وجلَّ- وصف نفسه بأنه نور، وجعل

كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا تتلألأ سبحان الله، هذا يجعلنا في غاية العناية بالنور.

ربما يكفينا الكلام عن هذا المثل ولم ينتهِ وقد ذكرنا سابقًا أننا لا يمكن أن ندعي أن بيان المثل في المرة والمرتين أو الثلاثة أو أكثر يعني أننا وصلنا إلى فهم المثل، باب عظيم، يحتاج إلى مزيد من التأمل والنظر والتقليب وملاحظة السياق، كل هذا يعين للوصول إلى الحق، نسأل الله أن يوصلنا إلى الحق.

مر معنا أيضًا في قراءتنا للآيات أن الله -عزَّ وجلَّ- ذكر أثر هذا النور على هؤلاء الخلق، وما هي أوصافهم وأنهم يتعبدون في بيوت عظيمة فاضلة، وهي أحب البقاع إليه، وهي المساجد، وقد ذكر بعض المفسرين: "إن هذه بيوتهم" نحن أمام قول يقول إن (فِي بُيُوتٍ) يعني في بيوت الله، المساجد.

وقول آخر (فِي بُيُوتٍ)، إن هؤلاء سكان البيوت بيوتهم التي هم فيها هذه حالها، وهم قارئي القرآن مسبحين، مهللين، يتعلمون، يذكرون، والذي يظهر -والله أعلم- أن المقصود المساجد.

النساء يقولون: "نحن لا ندخل في هذه الآية لأننا لسنا في بيوت الله، في المساجد إلا إذا تيسر لنا وصلينا التراويح مع المسلمين، كنا في البيوت، لكن بقية أيامنا ولياليا لسنا في البيوت" فالقول الثاني يؤخذ به لنفهم أنه يمكن أن تكون بيوتنا هي المقصودة في هذا، وأنها (بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ) لها بهذا الإذن العظيم. (أَذِنَ اللَّهُ) بمعنى أمر ووصى، و(أَذِنَ اللَّهُ) بمعنى أنه -سبحانه وتعالى- وفق أهلها أن يكونوا بهذه الحال، (أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) وهذه البيوت بيوت الإيمان. كثير من المفسرين أخذوا بالمعنى الأول، الذي هو المساجد، المعنى الثاني كما أنه يناسب المرأة فإنه يناسب العفة أيضًا؛ لأن هؤلاء الخلق بيوتهم عفيفة، وفيها يذكرون الله، و(رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ)، وحالهم أنهم (يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)، هؤلاء أبعد ما يكونوا عن الأمور التي تخدش العفة، فهم بعيدون عن النفاق؛ أن يظهروا بصورة ويبطنوا صورة أخرى.

واليوم، مع الخطر الذي نعيش فيه، والابتلاء الذي ابتلينا به -الله ابتلانا به اختبارًا وامتحانًا- تيسير أدوات الاطلاع على الفحشاء والمنكر، تيسير أدوات متابعة

الفحشاء والمنكر، حتى تصل إلى ممارسة الفحشاء والمنكر. هذا يجعل البيوت يمكن أن تخرب وتسقط على رؤوس أهلها! فبيوتنا لا بد أن نطهرها تطهيرًا عظيمًا ليبقى النور في بيوتنا. وقد ذُكر في بعض الآثار -ولا نجزم بصحة الأثر، لكن شاهد لنتصور الموضوع- "أن الملائكة الكرام ترى البيوت التي يُقرأ فيها القرآن في الليل كما نرى نحن النجوم في السماء." الملائكة ترى هذه البيوت كالنجوم، الظلام يغطي الأرض والملائكة تنظر إلى الأرض فترى البيوت التي يقرأ فيها القرآن كما نرى نحن النجوم، فإن صح الأثر سيكون هذا المعنى قوي، أن (فِي بُيُوتٍ) المقصود بيوت هؤلاء. فنحن نريد النور في دنيانا، ونريد النور في أخرانا، نريد النور في قلوبنا وفي بيوتنا، فلنطلب النور بالعلم والمحافظة على الفطرة وبسؤال الله الهداية التي هي قذْف نور الإيمان في قلوبنا. وبتطهير قلوبنا وبيوتنا من الأسباب المانعة، وأهم الأسباب المانعة الأسباب الدائرة حول العفة وعكسها الفحشاء والمنكر.

نسأل الله بمنه وكرمه أن يحفظنا ويحفظ أولادنا ويطرد عنا شر الأشرار وكيد الفجار، هؤلاء عندهم ولاء للشيطان، أولياء الشيطان! فهم خدم للشيطان،

يخدمون الشيطان بنشر الفحشاء والمنكر، يخدمونه بتعلية كل ما يفسد على الخلق عفتهم؛ لذلك تجد جدالًا حول أحكام اللباس وحول أحكام الحجاب، جدال ما مثله جدال! وليس السبب في خفاء الحق، بل السبب أن الشيطان يشبّه على الناس ويقوي عندهم الشهوات فتكون هذه هي النتيجة؛ أن يأتي موضوع العفة ويُناقش على أساس أنه أحكام، ما حكم لبس الحجاب؟ ما حكم اللبس العاري؟ ما حكم غطاء الوجه؟ كأننا ننسى أن هذه الأوامر إنما جاءت لطهارة المجتمع، فنفكر في المقصود. ولذلك يُلبس الحجاب ويكون بنفسه سببًا للفت النظر! ويلبس اللباس والظاهر أن البدن كله مغطى وهو يصف ويشفّ! فحتى الخلق ما صاروا يقبلون أن يقال "إن هناك شروط للحجاب ولا شروط للباس" وكله مبني على فكرة "أني حر وأفعل ما أريد في بدني!" وهذه الفلسفة الطاغية التي أفسدت على الناس النور حتى انطفأ من قلوب وبيوت كثير من المؤمنين.

نلاحظ أن هذا النور مضاف لرب العالمين، (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ) فلا بد أن نلحظ أن هذا النور لا يُعطى إلا لأهل الإيمان الأتقياء، وليس للمتلاعبين، وهذا سيعيدنا مرة أخرى إلى (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ

مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)
الذي يريد أن يكون تقيًا ويكون وضعه في هذه الدنيا جمع النور والمحافظة عليه فليتقِ الله ولا يستهِن بأي خطوة من خطوات الشيطان الذي لعنه الله. لذا في هذه السورة في الآية (21) قال رب العالمين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

النور نور الله، يُعطى لمن ابتعد عن مسلك الشياطين وما اتبع خطواته. اليوم يغير كذا في حجابه، واليوم يغير كذا في ملبسه، واليوم يغير كذا في علاقاته، واليوم يثق في فلان مع فلانة، وتأتي من هذه الأكاذيب؛ "هم مثل إخواني"...وإلى آخره من خطوات الشيطان، ثم ينطفئ النور. ولا تسل إذا انطفأ النور من بيوت المؤمنين ماذا يحصل، حين يتكلم أحد عن ارتفاع نسبة الطلاق، كثرة المشاكل الزوجية، حصول القتل بين الزوجين أو أسوأ وأسوأ! ما العلة؟ هذه خطوات الشيطان التي تصل إلى حد أن تقتل المرأة زوجها، والرجل يقتل زوجته، بل من السوء الذي وجد في

الـمجتمع أن يقتل أحد فتاة أمام الناس والسبب أنه شعر أنه مرفوض منها، وأن ظنه أنها ستقبله مبني على أوهامه ونظراته وشيء من اللطف منها الذي أشعره أنها ستكون قابلة له، فلما صدمته بالرفض اعتدى عليها بالقتل! وهل هذا إلا من آثار ضعف انتشار العفة ووضع أسوار لها؟

علينا أن نتفكر في حال الأسر التي هي اللبنة الأساسية، الأسر التي في بيوت فيها نور، بيوت الـمفترض أن تشتغل بذكر الله، وتربية الأبناء على معرفة الله، والـمحافظة على فطرتهم. من يريد أن يقول: "ما العلة؟" ستكون سورة النور هي الجواب وهذا يفهمنا لـماذا أتت أحكام الاستئذان، وما يتصل بها؟ لأن هذه البيوت هي التي يُراد أن تبنى على الإيمان محفوظة بحفظ الرحمن، والله الـمستعان.

كان الـمتأمَّل أن نتطرق للمثل التالي في السورة لكن هذا نصيبنا اليوم، وغدًا نبتدئ جازمين من الـمثل الثاني والثالث، بإذن رب العالمين، والحمد لله رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.